الشعر الشعبي الديني الجزائري في ميزان النقد: قراءة لرؤى عبد الله الركيبي النقدية

د. سهيلة بوساحة*

مستخلص

قارب الناقد الجزائري عبد الله الركيبي الشعر الشعبي الجزائري الحديث، في منجزه النقدي "الشعر الديني"؛ محاولًا الوقوف على قضايا الثورة والالتزام في الشعر الملحون الذي تنوعت أساليب التعبير فيه من قصيدة أو قصة بطولية أو حكاية خرافية أو سيرة شعبية، ينشدها الشاعر أو يغنيها في الأسواق والمحافل، يتكسّب منها أو يستثير بها همم الناس، يذكرهم بأسلافهم وماضيهم المجيد، أو يعظ بالدين والأخلاق؛ ولقد عبّر الشاعر الشعبي في هذا النوع من الشعر عن:

- مُثل الشعب وتطلعاته.
- ملء الفراغ الأدبي والروحي الذي أحس به الشعب.
- الإبقاء على الإشعاع الأدبي في الجزائر.
- الحفاظ على اللغة العربية رغم الظروف الصعبة التي تعرضت لها هذه اللغة والثقافة القومية بوجه عام.

وسأتناول في هذه المقاربة الجهد النقدي للناقد الجزائري "عبد الله الركيبي" الذي كرسه للشعر الشعبي الديني الجزائري؛ بهدف الوقوف على مدى التزام الشعر الشعبي الديني الجزائري الحديث بقضايا الثورة الجزائرية؟ ما المقصود: استشرافها أم التحضير لها؟

تتبع المداخلة منهجية تستمد آلياتها من نقد النقد ونظريتي القراءة والتلقي؛ باعتبارهما الأنسب في موضوعات التلقي والإجراء، والتي تُعيد إنتاج النص وتحاول تفعيله في ضوء نظريات النقد المعاصرة، وفي شروط تاريخية مختلفة عن شروط إنتاجه.

الناقد الجزائري عبد الله الركيبي من النقاد الأوائل الذين خاضوا غمار الممارسة النقدية، وما أنجزوه يستحق التقييم والتقديم والتعريف به؛ وبإمكان الاهتمام بمنجزه النقدي الذي اهتم فيه بقراءة الشعر الشعبي الديني المساهمة في:

---

* أستاذة محاضرة "أ"، جامعة محمد البشير الإبراهيمي برج بوعريرج، الجزائر.

Souhyla.boussaha@univ-bba.dz

- الوقوف على جملة القواعد والشروط التي تضبطه بوصفه خطابًا.
- التعرف على المستوى النقدي والكفاءة المعرفية لنقاده.
- موقعه في مسار الحركة النقدية للأدب الشعبي ككل.
- بلورة نظرية نقدية خاصة بالشعر الشعبي الجزائري.

1. الاصطلاح النقدي:

وضع عبد الله الركيبي اصطلاحات نقدية للتعريف بمصطلح الشعر الملحون؛ ووجد أنّ تسمية الشعر الملحون تُطلق[91] على الشعر الذي يلحن ويغنى أو على ما ينشد في الأسواق والبيئات الشعبية، عرف قائله أو لم يعرف، ولكنه بطول الزمن يفقد صفة الخصوصية ليتحول إلى شعر "جماهيري" مما ينشده المداحون أو الشعراء والجائلون يتكسبون به، أو يرددونه لسبب أو لآخر، قد يكون وطنيًّا أو أخلاقيًّا أو دينيًّا أو سياسيًّا، وقد فضّل ركيبي إطلاق تسمية الملحون على هذا الشعر حتى لا تتعارض كثيرًا مع بقية المصطلحات.

السمة الغالبة على الشعر الملحون هي أنّ روحه ولغته عامية في معظمها. ويرى الركيبي أنه من الصعب تحديد عصر معيّن لنشأة هذا الشعر في الجزائر أو في غيرها من البلدان العربية، فالبعض يرجع نشأة الشعر العامي إلى عصور موغلة في القدم، وإلى تلك اللهجات العربية التي ربما ظهر بعضها في العصر الجاهلي، مثل الأراجيز المنظومة بلهجات غير فصيحة في العصر الجاهلي. وقد ارتضى الركيبي المفهوم الذي قدّمه محمد المرزوقي في كتابه: الأدب الشعبي، الصادر في طبعته الأولى عن الدار التونسية للنشر سنة 1967، والذي يرى فيه أنّ "الشعر الملحون أعم من الشعر الشعبي، إذ يشمل كل شعر منظوم بالعامية، سواء كان معروف المؤلف أو مجهوله، وسواء دخل في حياة الشعب فأصبح ملكًا للشعب أو كان من شعر الخواص، فوصف الشعر بالملحون أولى من وصفه بالعامي، فهو من لحن يلحن في كلامه، أي إنّه نطق بلغة عامية غير معربة، أما وصفه بالعامي فقد ينصرف معنى هذه الكلمة إلى عامية لغته، وقد ينصرف إلى نسبته للعامة، فكان وصفه بالملحون مبعدًا له من هذه الاحتمالات"[92].

وهذا الحكم على الشعر الملحون بأنّه أعم هو اجتهاد من الباحث ورأي خاص به؛ لأنّه قد يتعارض مع ما يوصف به الشعر الشعبي باعتباره فنًا من فنون القول في التراث الشعبي، على أنّ تحديده للشعر الملحون والعامي يبدو أكثر دقة وأكثر تمييزًا بين هذين النوعين من الشعر.

---

[91] انظر: ركيبي، عبد الله . الشعر الديني الجزائري. دار الكتاب العربي، الجزائر، 2009، ص 364: 367.

[92] المرزوقي، محمد. الأدب الشعبي في تونس، الدار التونسية للنشر، تونس، 1967، ص 51.

وضّح ركيبي أنّ تسمية الشعر الملحون بالعامي قد توحي بأن قائله أميّ لا معرفة له باللغة قراءة أو كتابة، وقد توحي أيضًا بأن المتلقي له أمّي، وبأن هذا الشعر لا صلة له بالفصحى من قريب أو بعيد. والواقع أنّ الحال مختلف، فالقائل قد يكون أميًّا وقد يكون متعلمًا بصورة أو بأخرى مثل المتلقي.

2. نقد مضمون الشعر الديني الجزائري الملحون:

1.2. قضايا نقدية في الشعر الديني الجزائري الملحون:

يرى الركيبي أنّ الاهتمام بالشعر الديني الملحون دون الفصيح حال دون اهتمام النقد الجزائري بمدى ما تحدثه قضية الدين في الشعر، رغم أنّ الشعر الشعبي يظهر فيه أثر الدين؛ لأنّه تناول الموضوعات نفسها التي عالجها شعراء الفصحى[93]؛ فالناقد على وعي بأنّ "الأدب الشعبي يتفاعل مع الأدب الرسمي، يتأثر به، ويأخذ منه، مثلما كان تأثير الأدب الرسمي واضحًا في موضوعاته ومضامينه"[94]، غير أنّه يوجد سبب واضح لظهور أثر الدين في الشعر الشعبي الجزائري لا يتعلّق باستيحاء الشعر الشعبي موضوعات الشعر الفصيح والتفاعل معها، وإنّما برؤية "الشاعر الشعبي المنطلقة من عقيدة دينية راسخة تتضّح من خلال تأكيد الشاعر على التواصل بين جهاد الصحابة وجهاد الجزائر من أجل الإسلام تعزيزًا لتلك الروح الإسلامية الأصيلة"[95].

1.1.2. قضية الدين:

إنّ النقد وما وقف عليه ركيبي في النصوص النقدية يُركّز على إظهار الأثر العاطفي للدين على الشعب، الذي انعكس في الشعر الديني الملحون باعتباره خطابًا جماهيريًّا؛ فالشعر "الملحون كان يُشكّل التيار الغالب للشعر المغربي القديم"[96] خلافًا للشعر الفصيح الذي عدُّوه خطابًا خاصًا بالنخبة مما أدى إلى غياب اهتمام الباحثين به وغياب محاولاتهم للوقوف على أثر الدين في هذا الشعر؛ فلم يول النقاد الشعر الديني الجزائري الفصيح ما يستحق من جهد التحليل أو النقد والمقارنة، كل ما فطنوا إليه أثر الشعر الديني في نفوس الناس وتشبث الشعب الجزائري بالدين الإسلامي، لذلك اقتصروا في محاولاتهم النقدية على إظهار أثر الدين بوجه عام في تغذية العواطف ضد الاستعمار وخاصة ما اتصل منه بالروح الشعبية، الأمر الذي انعكس في الشعر الديني الملحون[97] باعتباره

---

[93] ركيبي، عبد الله. الشعر الديني في الجزائر، مرجع سابق، ص: 379.

[94] التلي بن الشيخ. دور الشعر الشعبي الجزائري في الثورة. ص: 62.

[95] انظر: التلي بن الشيخ. منطلقات التفكير في الأدب الشعبي الجزائري. ص: 81.

[96] محمد بنيس. حداثة السؤال. ص: 70.

[97] انظر: عبد الله ركيبي. الشعر الديني الجزائري. ص: 6.

خطابًا شعريًّا جماهيريًّا تتجلى فعاليته في الأثر الذي يتركه لدى المتلقي وضروري أن يُساير ظروف الشعب وطموحاته؛ إذ:

- "يُصوّر الشعر الملحون وجدان الشعب وأحاسيسه.
- يعبّر عن قضاياه الوطنية والسياسية والاجتماعية.
- يرصد حياته اليومية المعيشة"[98].

وهذه الوظيفة ليست استثنائية أو طارئة في الشعر الشعبي الجزائري، وإنّما تطلّبتها ظروف الجزائر، بل وظيفة الشعر الشعبي المنوطة به؛ مما يعني أنّ "منطلقات الشعر الشعبي الجزائري منطلقات واقعية نابعة من آلام وجراح الشعب الجزائري"[99]. ويمكن اعتباره "شعرًا التزاميًّا لالتصاقه بالقضايا الوطنية والقومية"[100]؛ ذلك أنّ الشعر الشعبي الجزائري شعر وطني قام بدور هام في الحياة الاجتماعية والثقافية والسياسية[101]، وعلى اعتبار أنّ الشاعر الشعبي فرد من أفراد المجتمع الجزائري، ومن الطبيعي أن يعيش قضايا وطنه ويتفاعل مع الأحداث التي تجري في بلاده[102]، ويعبّر شعره عن طموحات الجماعة التي ينتمي إليها، والمتمثلة في رغبة الحصول على الاستقلال والحرية.

قصائد الشعر الشعبي "تُجلي تركيبة وجدان الإنسان العادي وتعكس ضميره الفردي بما هو ضمير جماعي، وتنقل سيكولوجية الجماعة التي يتمّ تداولها فيها"[103] وطبيعي أن يُقدّم الشعر الشعبي الجزائري رؤية يتكشّف معها الوعي الممكن للشعب الجزائري وتتولدّ معها "روح جماعية نادرة، ورسخّت في نفسه شعورًا عميقًا بالجماعة، ومن هنا ندرك سبب إكثار الشاعر من صيغ الجمع في شعره"[104]؛ مما يدل على أنّ عمله جماعي وليس فرديًّا يتحدّث عن قضية تهم الشعب بأكمله وليست قضية الشاعر الخاصة. في حين نفى بعض نقاد عن الشعر الشعبي الجزائري التصاقه بالقضايا القومية؛ لأنّ الشاعر "لم يستطع طرح القضية في إطار قومي تمثّل الجزائر فيه جزءًا من معركة النضال ضد الاستعمار والاستغلال"[105]، وإن كان الشعر الشعبي الديني "يتميز

---

[98] عز الدين معتصم. موضوعات التصوف في الشعر الملحون. ص: 146.

[99] التلي بن الشيخ. منطلقات التفكير في الأدب الشعبي الجزائري. ص: 6.

[100] أحمد يوسف. يتم النص والجينيالوجية الضائعة– تأملات في الشعر الجزائري المختلف.ص: 27.

[101] انظر: التلي بن الشيخ. دور الشعر الشعبي الجزائري في الثورة. ص: 61.

[102] المرجع نفسه، ص: 98.

[103] عز الدين معتصم. موضوعات التصوف في الشعر الملحون. ص: 147.

[104] انظر: صالح خرفي. شعر المقاومة الجزائرية. ص: 51.

[105] التلي بن الشيخ. منطلقات التفكير في الأدب الشعبي الجزائري. ص: 34.

بنوع من الشمولية تتجاوز النظرة القومية"[106]. وقد اتضّح للناقد أنّ الشعر الملحون لعب دورًا هامًا في التعبير عن الروح الوطنية والدينية معًا، وسجل أحداثًا وقضايا قومية، وصوّر المأساة الجزائرية والأمجاد والمواقف البطولية، وبهذا يكون قد ساهم في المحافظة على الروح القومية، وسجّل الظروف الاجتماعية التي سادت الجزائر في القرن العشرين[107]؛ فأهم قضية عالجها الشاعر الشعبي "هي البحث عن وحدة وطنية سليمة تجعل مصير الشعب الجزائري المقهور فوق كل الاعتبارات"[108]؛ مما يعني مشاركة الشعر الشعبي هموم الشعب الجزائري، وكذا استيعابه للواقع ومتطلباته ومحاولة الإسهام في إيجاد الحلول لقضية الجزائر المصيرية. والمتصفح للشعر الشعبي الجزائري يجده يُصوّر "ملامح فترة الاحتلال الفرنسي بطريقة توضح جوانب الحياة السياسية، والاقتصادية والاجتماعية"[109]، غير أنّ النقاد غاب عن ذهنهم معاينة المضمون للوقوف على مدى استيعاب الشعر الشعبي لقضايا الشعب الجزائري؛ مما حال دون بلورة نظرية للشعر الشعبي الملتزم، كما غاب عنهم أنّ "كلا اللونين من الشعر الفصيح والعامي أبقى على الإشعاع الأدبي في الجزائر"[110] لاتخاذهما الدين موضوعًا؛ فمحافظة الشعر الشعبي الجزائري على الإشعاع سببه الدين الإسلامي الذي كان "رافدًا من روافد الإثراء للأدب الشعبي ومنبعًا من منابع الإيحاء والتواجد، يستمد منه الأديب الشعبي ملامح الإبداع والإمتاع"[111].

ويرى ركيبي[112] أنَّ كلا النوعين من الإبداع رغم اختلاف اللغة، أدى الدور نفسه وحافظ على رونق الأدب الجزائري؛ ذلك أنَّ العوامل التي ساعدت على انتشار الشعر الديني الفصيح المعرب هي العوامل نفسها التي أسهمت في انتشار الشعر الديني الملحون، بحيث تجاورا وسارا في خطين متوازيين والموضوعات التي عالجاها واحدة تقريبًا. ونظرًا لمعالجة الشعر الفصيح قضايا الشعب الجزائري يمكن القول إنّ "الشعر الشعبي لم يتخلّف عن الركب ومواكبة التّطور الاجتماعي والسياسي

---

[106] المرجع نفسه، ص: 12.

[107] انظر: عبد الله ركيبي. الشعر الديني الجزائري. ص: 376.

[108] التلي بن الشيخ. منطلقات التفكير في الأدب الشعبي الجزائري. ص: 34.

[109] التلي بن الشيخ. دور الشعر الشعبي الجزائري في الثورة. ص: 97.

[110] انظر: عبد الله ركيبي. الشعر الديني الجزائري. ص: 8.

[111] التلي بن الشيخ. دور الشعر الشعبي الجزائري في الثورة. ص: 62.

[112] انظر: عبد الله ركيبي. الشعر الديني الجزائري. ص: 383.

- لقد ظهر شعراء متصوفة أنشدوا قصائد ملحونة وموشحات وأزجال في المديح النبوي وفي الإشادة بالدين، وهم في هذا يتابعون شعراء الفصحى، لأن الظروف الاجتماعية والسياسية والثقافية التي أثرت في الشعر الفصيح، هي نفسها التي ساهمت في اتجاه شعراء الملحون إلى الدين فأنشدوا أو أنشأوا فيه قصائدهم أو أزجالهم لينفسوا عن حرمانهم في الحياة. انظر: عبد الله ركيبي. الشعر الديني الجزائري. ص: 369.

الذي عرفته المقاومة الجزائرية"[113]، وانعكست بصورة واضحة في الشعر الجزائري المكتوب باللغة الفصحى. وينفي خرفي أنّ تكون هذه المواكبة والتطور التي تسنت للشعر الشعبي سببها تشابه العوامل التي أثرت في الشعر الفصيح وانعكست على الشعر الشعبي نتيجة التجاور أو لاتخاذهما الدين موضوعًا للشعر، وكأنّه يريد أن يقلب الإشكالية؛ الشعر الفصيح اغتنى بمجاورته للشعر الشعبي بدليل أنّه "وجد في القصيدة الشعبية من التصاعد بقدر ما وجد في الفصيحة من تدهور"[114]. أي إن الشعر الشعبي الجزائري كان السبّاق في المحافظة على رونق الشعر الديني الجزائري، على الأقل عن "الجمود الشكلي والانحراف المضموني الذي مسّ الشعر الفصيح تُستثنى منه القصيدة الشعبية التي تستمد نزاهتها وبراءتها من نزاهة الجموع البريئة التي تتغنى بها"[115].

يلاحظ ركيبي أنّ الاختلاف بين الخطابين (الشعبي والفصيح) سببه اختلاف "مستويات المتلقي لكل من النوعين معًا"[116]؛ ولأنّ متلقي الشعر الملحون هو عامة الناس "اتسمت النظرة النقدية في دراسة الشعر الشعبي بالتوجّس والريبة، لأنّه يمثّل في تصوّر الكثيرين دعوة إلى إحياء اللهجات العامية ومنافستها للفصحى وتهديدًا للغة القرآن الكريم وتنفيذًا لأفكار المستشرقين وأعداء الأمة"[117]. غير أنَّ بعض نقاد الشعر الشعبي الجزائري يرى أنّه شعر، ونسبته إلى الشعب بالذات تُبطل وتلغي هذه النظرة النقدية القاصرة وغير المؤسسة، وتُغني شعرنا الشعبي عن كل تنويه بالبراءة وتلويح بالخلود؛ لأنّه النص الذي يستمد بقاءه من جموع تتوالد على مر الأيام، مترعرعة في مهد البراءة الأصيلة، متمنّعة عن كل تزييف دخيل[118]. ولهذه الصفة التي يتمتّع بها الشعر الشعبي لقي اهتمام المستشرقين الأجانب؛ حيث كان هدفهم من نقل بعض نماذج الشعر الديني الملحون التنديد بالعقيدة الدينية، واعتبار الإسلام عائقًا لغزوهم، وعقبة تقف أمام مدنيتهم الجديدة التي جاءوا بها إلى الجزائر[119]، "فلا غرابة أن يلقى حامل الكلمة الهادفة من المستعمر ضراوة لا ترحم"[120]؛ لأنّ الأجنبي يدرك أنّ العقيدة فطرة فُطر عليها الشعب ويستحيل تخليه وانحرافه عنها.

---

[113] التلي بن الشيخ. منطلقات التفكير في الأدب الشعبي الجزائري. ص: 55.

[114] انظر: صالح خرفي. المدخل إلى الأدب الجزائري الحديث. ص: 104.

[115] انظر: صالح خرفي. شعر المقاومة الجزائرية. ص: 14،15.

[116] انظر: عبد الله ركيبي. الشعر الديني الجزائري. ص: 383.

[117] انظر: أحمد يوسف. يتم النص والجينيالوجية الضائعة- تأملات في الشعر الجزائري المختلف. ص: 27.

[118] انظر صالح خرفي. شعر المقاومة الجزائرية. ص: 21.

[119] انظر: عبد الله ركيبي. الشعر الديني الجزائري. ص: 6-7.

[120] صالح خرفي. الشعر الجزائري الحديث. ص: 17.

الذي تفطّن الشاعر الشعبي الجزائري له وأكدّه في شعره أنّ "الغزو الاستعماري غزو للإسلام لا يختلف في أهدافه عن الحروب الصليبية التي تعرض لها الإسلام"[121]. وقد وعى المستشرقون مقصدية الشعر الشعبي الديني، وأهملوا حسب ركيبي الشعر الفصيح، ولم يلتفتوا إليه عدا بعض الجزائريين الذين أشاروا إلى الشعر الديني ونظروا إلى الجانب السلبي منه أكثر من الإيجابي. ولم يشر الناقد إلى ممارساتهم إمّا لأنّها لا ترقى إلى مستوى الدراسة النقدية[122]، أو ربما لأنّهم ركزوا على الجانب السلبي، فأهملهم لأنّه لم يجد مبرّرًا لإهمالهم الشعر الديني الفصيح على الرغم من وجود الشاعر الرسمي الذي أنشأ القصيدة المعربة الفصيحة، وعبّر فيها عن نوازعه الروحية الخاصة أو أشاد فيها بالجماعة التي ينتمي إليها وبمواقفها واتجاهاتها، بل إنّ من النقاد من أهمل هذا اللون من الشعر الذي عّبر فيه أصحابه باللغة القومية، وعُني بالذين كتبوا من الجزائريين باللغة الفرنسية ولم يعنوا بالدين إطلاقًا. ولقد اعتبر خرفي إهمال النقد للشعر الديني الفصيح نوعًا من التطرف في الانحراف، كان من المفروض أن يتخذه نقاد الشعر في الجزائر أكبرَ مبرّرٍ للتطرف والعنف في الهجوم عليه؛ فالمتمعّن في التجربة الشعرية في الجزائر حسب الناقد يجد شعرًا ينتفض حقدًا على التلاعب بالدين ويشمئز من أدعيائه، بل وجد ناقدنا شعراء يتفرغون لهذه الواجهة الصارخة يكرسون لها شعرهم، ويقصرون عليها مواقفهم[123]. وقد علّل ركيبي موقف الشعراء في الجزائر وقصرهم التجارب الشعرية على الموضوع الديني بالحالة النفسية للشاعر ولأمته على السواء.

2.1.2. قضية الثورة في الشعر الشعبي الجزائري:

"...الشاعر حين أحسّ بالتضيق على حريته وحرية شعبه انكفأ على نفسه يجتر أحزانه ويصوغها في قصائد دينية يرثي بها واقعه أو عصره أو أنّه من خلال الدين كان يحثّ الشعب على المقاومة والنهوض، وقد انعكس هذا كلّه في قصائد الشعراء شكلًا ومضمونًا"[124]، وبالفعل لقد هدف الشعر الشعبي الجزائري إلى "بعث اليقظة وإيقاظ الحس الوطني لكي تعي الجماهير واقعها وتدرك آلامها، وجهلها بما يحيط بها"[125].

---

[121] انظر: التلي بن الشيخ. منطلقات التفكير في الأدب الشعبي الجزائري. ص: 6.

[122] انظر: عبد الله ركيبي. الشعر الديني الجزائري. ص: 6-7.

[123] انظر: صالح خرفي. الشعر الجزائري الحديث. ص: 36.

[124] عبد الله ركيبي. الشعر الديني الجزائري. ص: 7.

[125] التلي بن الشيخ. منطلقات التفكير في الأدب الشعبي الجزائري. ص: 43.

1. المضمون في الشعر الشعبي الديني الجزائري:

كان الشعر الشعبي على مستوى المضمون "داخل المشهد الشعري الجزائري العام سباقًا في انصهاره مع الواقع وتسجيله لأحداث تاريخية لا نلفي لها إشارات واضحة في الشعر المكتوب بالعربية الفصحى، فكان أكثر التصاقًا بالمقاومة وأغزر إنتاجًا؛ فلقد سبق وأن صوّر الشعر الشعبي الحياة الجزائرية في عهد الأتراك وبكى على سقوط الجزائر في قبضة الاحتلال؛ فأول قصيدة شعبية بكت سقوط الجزائر العاصمة في يد الاستعمار الفرنسي كانت من الشعر الشعبي لعبد القادر الوهراني عنوانها الفرانصيص يصف فيها حال الجزائر لحظة الاحتلال الفرنسي لها واستباحته لحرمة مزغنة وفرح اليهود ونسائهم بهذا الاحتلال وتقاعس الأتراك في رد هذا العدوان على الجزائر. القصيدة آية من آيات الشعر الشعبي التي تتوافر على لغة رقيقة وصدق فني عال وتشبه إلى حد ما عرف في الأدب العربي برثاء المدن في الأدب الأندلسي"[126]؛ مما يؤكد وعي شاعر الملحون الجزائري بالتاريخ[127] وعيًا انعكس في قصيدة الملحون قبل القصيدة الفصيحة؛ إذ استطاع الشاعر الشعبي أن "يُخلّد تاريخ الثورات الجزائرية المتكررة بطريقة أوضح منهجًا من طريقة الاعتماد على الوثائق الرسمية الفرنسية التي كتبها الفرنسيون خاصة والغربيون عامة، عن الثورة الجزائرية"[128]. وإلصاق صفة التأريخ بالشعر الشعبي الجزائري الحديث لا يعني أنّه وثيقة تاريخية وخال من الفنية والجمالية، ولأنّ المقاومة ومن بعدها الثورة تولاها الشعب تأتى للشعر الديني الجزائري الملحون أن يُعبّر عن طموحات الشعب الجزائري وعن مشاعر الجماهير وتطلّعاتها، وبالتالي عن المزاج الشعبي القومي[129]، وبلغته القومية العامية؛ "فالشعراء هم مقياس الإحساس القومي"[130] هذا من جهة، ومن جهة أخرى نجد أنّ "جملة المواد البكر التي تعطينا كثيرًا من الحقائق، أدب الشعب الذي اهتم بكل ما يتعلّق بالثورة"[131]، فقد "كانت القصيدة الشعبية المعبّر الأمين عن أبعاد هذه المأساة"[132] التي عاشتها الجزائر بغض النظر عن اختلاف التعبير بين فصيح وعامي. واللغة العامية التي كُتب بها الشعر الشعبي الجزائري لم تنل من قيمته كنص، ما دامت الدراسة منصبة على المضمون أولًا

---

[126] أحمد يوسف. يتم النص والجينيالوجية الضائعة– تأملات في الشعر الجزائري المختلف.ص: 31.

[127] انظر: عبد الله ركيبي. الشعر الديني الجزائري. ص: 413.

[128] انظر: التلي بن الشيخ. دور الشعر الشعبي الجزائري في الثورة. ص: 243.

[129] انظر: عبد الله ركيبي. الشعر الديني الجزائري. ص: 379.

[130] صالح خرفي. الشعر الجزائري الحديث. ص: 17.

[131] العربي دحو. العناصر والمجموعات الوطنية في النص الشعري الشعبي بمنطقة الأوراس أيام الثورة التحريرية. مجلة الثقافة. السنة الرابعة عشرة، العدد 83. تصدرها وزارة الثقافة، الجزائر. 1984. ص: 375.

[132] صالح خرفي. المدخل إلى الأدب الجزائري الحديث. ص: 104.

وبالذات، ولو تفرّد المضمون وحده بالدراسة لوجدناه ألصق بالأدب الشعبي منه بالأدب الفصيح[133]. إذ يوجد فيه من "الأصالة والعمق والصدق موضوعًا ومن الشفافية والتماسك والرونق أسلوبًا، ما لا نجده في الشعر بلغته الفصحى"[134]، فميزة الشعر الشعبي تكمن في قدرته على استيعاب موضوعات دقيقة وعميقة "عن طريق لغة مشحونة بالإيحاء تحمل هواجس الذات الناطقة بألفاظ تتضمن المعاني الخفية العميقة"[135]، مما يعني أنّ الشاعر الشعبي وعلى الرغم من محدودية تصُوره "استطاع أن ينوّع في موضوعاته ومضامينه ويخضع تصوره ورؤيته إلى واقع الشعب المحروم"[136] الذي يطمح إلى فكّ القيود للتحرر، فطموحات الشعب الجزائري وأهدافه التي سطرتها الثورة الجزائرية كانت هي "المحاور التي بدأ بها النص الشعري الشعبي رحلته"[137]، وهو بهذا قد ساير أحداث شعبه؛ إذ نجد "جوانب من مأساة الاحتلال تُطالعنا بوجه سافر في الشعر الملحون"[138] لا يبذل القارئ جهدًا للوقوف عليها، لأنّ الشاعر الشعبي لم يعمد فيها للإيحاء والرمز وتناولها بأسلوب سهل بسيط حتى تفهمه العامة، وانتبه خرفي إلى أنّ ضيق المناسبة التي قد تسم منطلقات الشعر الجزائري الحديث وتُكسبه صبغة خاصة تُغيّب الدلالة الوطنية وتُظهر الشعر بعيدًا عن مجال النضال السياسي[139].

ولقد أشار ركيبي إلى قضية ثقافة شاعر الملحون الديني، ولا يراه "يتمتع بثقافة تؤهله لفهم الدين فهمًا سليمًا والوقوف على أهداف الرسالة المحمدية الإنسانية، كما أنّها لا تساعده على أن يتعمق في جوهر الدين"[140] للإحاطة به بوصفه قضية تتطلب لجوء المتلقي إلى التأويل والبحث فيما وراء اللغة. فاستيعاب شاعر الملحون الجزائري للدين الإسلامي "بسيط ينصب على فكرة الجهاد والتضحية، لا على ما فيه من تشريعات ومبادئ"[141]؛ لأنّ الشاعر الشعبي الجزائري كان يهمه "متابعة ما يجري في الحياة من أحداث اجتماعية وسياسية في عهد الاحتلال ليتفاعل معها ويتعاطف مع آلام الشعب وجراحه، حتى يتسنى له اتخاذ موقف وطني صريح"[142] يُموقع إبداعه ضمن الأدب الملتزم والمسؤول.

---

[133] انظر: صالح خرفي. شعر المقاومة الجزائرية. ص: 22.

[134] انظر: صالح خرفي. المدخل إلى الأدب الجزائري الحديث. ص: 104.

[135] عز الدين معتصم. موضوعات التصوف في الشعر الملحون. ص: 143.

[136] التلي بن الشيخ. دور الشعر الشعبي الجزائري في الثورة. ص: 432.

[137] انظر: العربي دحو. العناصر والمجموعات الوطنية في النص الشعري الشعبي. ص: 376.

[138] انظر: صالح خرفي. شعر المقاومة الجزائرية. ص: 21.

[139] انظر: صالح خرفي. الشعر الجزائري الحديث. ص: 95.

[140] عبد الله ركيبي. الشعر الديني الجزائري. ص: 384.

[141] المرجع نفسه، ص: 205.

[142] انظر: التلي بن الشيخ. منطلقات التفكير في الأدب الشعبي الجزائري. ص: 52.

2. الشكل في الشعر الشعبي الديني الجزائري:

تنوُّعت على مستوى الشكل أساليب التعبير في الشعر الديني الشعبي، حيث شكّل شاعر الملحون في الجزائر شعره اعتمادًا على:

- بنية القصيدة،
- أو القصة البطولية.
- أو الحكاية الخرافية.
- أو السيرة الشعبية.

أي إنّ "شكل الشعر الشعبي قد ظلّ كما هو ولم يعرف تغيّرًا يذكر سواء في ألفاظه أو أساليبه"[143]؛ لذلك لم ينصب اهتمام ركيبي على فنيات الشعر الشعبي الديني بقدر اهتمامه بالمضمون الديني الإصلاحي والسياسي الوطني الذي ينوّع فيه صاحبه خطابه الشعري من أجل استثارة همم الناس وتذكيرهم بأسلافهم وماضيهم المجيد أو الوعظ بالدين والأخلاق[144]. فما يهدف إليه ناقدنا هو الكشف عن فاعلية الشعر الشعبي الديني الجزائري؛ ذلك أنّ "تطور الشعر الشعبي ومواكبته للأحداث تقتصر على موضوعاته وأغراضه"[145] التي يتجلى معها المضمون الديني الهادف للإصلاح دون أن يهتم بالجانب الفني لشعره، وكأنّه يعي أنّ "النص الشعري الشعبي كان يتطور مع تطور الثورة، إذ بدأ مع بدئها وبأسلوبها وطريقتها، ثم تفجّر مع تفجرها واتسع باتساعها"[146]، ولم يبذل جهدًا في محاولة إيجاد فنيات تتماشى مع مضمونه، كل ما فعله أنّه كيّف مبنى شعره مع أيديولوجيا الثورة؛ الأمر الذي يكشف أنّ الشاعر الشعبي يتمتع بـ"درجة مقبولة من الثقافة الأدبية"[147] لتفطنه لوظيفة الشعر التي يحملها المضمون.

ربما ما غيّب الشعر الشعبي عن الدراسات النقدية هو لغته العامية، لكن ركيبي يرى أنّ هذا الخطاب الشعري قد "حافظ على اللغة العربية رغم الظروف الصعبة التي تعرضت لها هذه اللغة والثقافة القومية بوجه عام"[148]؛ فبإمكان الشعر الشعبي أن "يمدّ اللغة بما فات تسجيله على الرواة"[149]، ويُسهم في تطويرها رغم أنّه كُتب بلغة محلية مختلفة عن اللغة العربية، والسبب راجع

---

[143] التلي بن الشيخ. دور الشعر الشعبي الجزائري في الثورة. ص: 430.

[144] انظر: عبد الله ركيبي. الشعر الديني الجزائري. ص: 8.

[145] التلي بن الشيخ. دور الشعر الشعبي الجزائري في الثورة. ص: 430.

[146] العربي دحو. العناصر والمجموعات الوطنية في النص الشعري الشعبي. ص: 376.

[147] أحمد يوسف. يتم النص والجينيالوجية الضائعة– تأملات في الشعر الجزائري المختلف.ص: 30.

[148] عبد الله ركيبي. الشعر الديني الجزائري. ص: 8.

[149] عز الدين معتصم. موضوعات التصوف في الشعر الملحون. ص: 146.

إلى أنّ الشاعر الشعبي قد احتك بلغة القرآن الكريم خاصة في المديح الديني فاغتنت لغته الشعبية المحلية؛ إذ "تطورت لغتنا العامية عن الفصحى"[150]، وسيلمس المطلّع على النصوص الشعبية "مدى عراقتها في اللغة الأم، فلعلّها أقرب لسان شعبي إلى اللغة العربية، لا يفرّقها عنها إلاّ تحرّر في الإعراب وتساهل في بنية الكلمة وعفوية في النطق بحروفها"[151]، مما يعني أنّ قصائد الشعر الشعبي قد "حافظت على القيّم الجمالية وطوّرت اللغة"[152]، رغم تحررها من ضوابطها وقوانينها، ويجد المتصفح لمعجم الشعر الشعبي سيطرة الحقل الدلالي الثوري المقاوم المتعطش للحرية والاستقلال.

3.1.2. التراث في الشعر الشعبي الديني الجزائري:

وقف ركيبي في الشعر الشعبي الجزائري على إسراف الشاعر في الحديث عن الأمجاد، مسايرة للواقع الذي يعيشه وإلحاحًا لاستنهاض الهمم من خلال التذكير بالتاريخ الحافل بالأمجاد، والذي لم يبق منه سوى ذكريات يعيش عليها الفرد والشعب معًا[153]، مما يُبرّر التزام الشاعر الشعبي الجزائري بقضايا شعبه الذي انعكس في شعره على المستويين الشكلي والمضموني بمحاولة الشاعر الجزائري ربط حداثته ومعاصرته بتراثه؛ فالشعر كان "يهمه أن يلتقي بأية صورة مشرفة من صور الماضي، فالفكرة هي إثبات عراقة هذا الوطن في التاريخ بمختلف أطواره وتعدد وجوهه وتأكيد أصالته في الاستقلال والحرية"[154] التي أصبحت بمثابة الكلمة المفتاح في الشعر الشعبي الجزائري و"هدفًا من أهداف الشعر الشعبي، فقد تخلى الشاعر عن التعبير بالشكوى والمطالبة وتصوير الظلم والاضطهاد، ودعا إلى حمل السلاح واستعمال العنف ومواجهة الاستعمار بالقوة"[155]؛ إذ ترتبط الحرية بالثورة و"يقف الشعر منها موقفه من إشراقة الثورة، فيه الصمت والرهبة والخشوع"[156] ويحمل معاني الثورة بكلّ أبعادها.

يعي عبد الله الركيبي أنّ الشعر الملحون "معين خصب يرفد التاريخ بالحلقات المفقودة"[157]، ولا يمكن اعتبار عودة الشاعر الشعبي الجزائري إلى التاريخ وأمجاده اعتباطًا أو من باب الصدفة؛

---

[150] محمد مندور. في الميزان الجديد. ص: 255.

[151] صالح خرفي. شعر المقاومة الجزائرية. ص: 22.

[152] انظر: عز الدين معتصم. موضوعات التصوف في الشعر الملحون. ص: 147.

[153] انظر: عبد الله ركيبي. الشعر الديني الجزائري. ص: 126.

[154] انظر: صالح خرفي. الشعر الجزائري الحديث. ص: 102.

[155] انظر: التلي بن الشيخ. منطلقات التفكير في الأدب الشعبي الجزائري. ص: 80.

[156] انظر: صالح خرفي. الشعر الجزائري الحديث. ص: 29.

[157] عز الدين معتصم. موضوعات التصوف في الشعر الملحون. ص: 146.

فتركيزه على قضايا وطنية أو أحداث تاريخية وكذلك على شخصيات عربية إسلامية من أجل غاية وطنية نبيلة"[158] أين بداية هذا الاقتباس وهذا يدخل ضمن عمليات استلهام المعطيات التراثية التي "تكتسب نوعًا خاصًا من القداسة في نفوس الأمة ونوعًا من اللصوق بوجدانها، لما للتراث من حضور حي ودائم في نفوس الأمة"[159].

يتولى خطاب الشعر الملحون مهمة "تصوير وجدان الشعب وخبراته"[160]؛ حيث يتخذه الشاعر كخبرة لحاضره "معتمدًا على الثقافة التراثية المتمكّنة في نفوس الناس، وما في الشعر القديم من صور البطولة، وأدب الحماسة"[161]. ومن النقاد من قسّم الشعر الجزائري الحديث الذي عاد إلى الماضي وذكّر بالأمجاد والبطولات إلى قسمين مستندًا في ذلك إلى الرؤية الموضوعية، فكان:

- الأول اتجاهًا يحمل رؤية عامة تمجّد التاريخ والحضارة والتراث وتعلي من شأن الشخصية الوطنية في تعابير عامة تحتكم إلى الفكرة الكلية، دون أن تلتجئ إلى الجزئيات[162]، وهذا الاتجاه نحاه الشاعر الشعبي الذي كان يأخذ "بأسباب الموروث الثقافي ليبقي وسائل التواصل حاضرة دائمًا حتى لا ينفصل يومه عن أمسه، ولا ينقطع يومه عن غده"[163]، دون أن يهتم بالجانب الفني أو يكون مالكًا لرؤية دقيقة وواضحة للقضية التي يعالجها.
- والاتجاه الشعري الثاني يحمل رؤية خاصة تُسلّط الأضواء على شخصيات بذاتها ومواقف بعينها وتُفضّل التعداد والاستقراء، فكأنّها ترمي إلى الإقناع أو بعث الاعتزاز بأسماء لها صدى في التاريخ البطولي للوطن"[164]، ومن يبعث الأمل والتفاؤل في نفوس الجماهير المضطهدة؛ أي إنّ شعراء الجزائر قد "وجدوا ضالتهم بشكل خاص في تلك الأصوات التراثية التي ارتفعت في وجه طغيان السلطة في عصرها"[165]؛ فالاستدعاء يكون عن وعي وإدراك، حيث يُتوقع أن تنهض شخصية من شخصيات الواقع وتعيد التاريخ نفسه وترفع صوتها في وجع الاستعمار الفرنسي، ويتّم لوجود التماثل والمشابهة بين الصوتين ثم يختار الشاعر الغرض الشعري الذي يُساعده على تحقيق هدفه.

---

[158] انظر: التلي بن الشيخ. منطلقات التفكير في الأدب الشعبي الجزائري. ص: 44.

[159] انظر: علي عشري زايد. استدعاء الشخصيات التراثية. ص: 16.

[160] عز الدين معتصم. موضوعات التصوف في الشعر الملحون. ص: 146.

[161] سيف الدين القنطار. الأدب العربي السوري بعد الاستقلال. ص: 31.

[162] انظر: صالح خرفي. الشعر الجزائري الحديث. ص: 102.

[163] العربي دحو. العناصر والمجموعات الوطنية في النص الشعري الشعبي. ص: 378.

[164] انظر: صالح خرفي. الشعر الجزائري الحديث. ص: 102.

[165] علي عشري زايد. استدعاء الشخصيات التراثية. ص: 33.

وبالتالي: فالعودة نابعة من إحساس "الشاعر بمدى غنى التراث وثرائه بالإمكانات الفنية وبالمعطيات والنماذج التي تستطيع أن تمنح القصيدة المعاصرة طاقات تعبيرية لا حدود لها فيما لو وصلت أسبابها بها"[166]، فاختار الشاعر الجزائري التراث وحاول استثمار إمكاناته الفنية ليُعبّر من خلالها عن وضعه الحالي، وهو بهذا قد منح الشعر الحديث طاقات قديمة سبق لها أن تولت مهمة التعبير عن الواقع، واعتبر الشاعر الجزائري الحديث الماضي ملاذًا يلوذ به من المعاناة التي نتجت جرّاء الضغط والإرهاب الأجنبي. والشاعر الشعبي مثله وجد في "بعث الماضي وتأبينه بعض الراحة النفسية في حاضر لا يزرع في النفس إلاّ القلق والبلبلة"[167]؛ وفي هذا تأكيد على أنّ دافع العودة إلى الماضي ينشد الشاعر من خلاله الراحة النفسية؛ فلما كانت "المأساة تفتيتًا للمقومات الذاتية، فالثقافة العربية تجميع لها من جديد"[168]، وعودة الشاعر الشعبي إلى التراث دليل على وعيه بأهميته في لمّ شتات الأمة وربط حاضرها بماضيها بغية التعويض.

يكاد يتفق الدارسون والباحثون في الشعر الشعبي على أنّ الشاعر الشعبي يأخذ "بأسباب الموروث الثقافي ليُبقي وسائل التواصل حاضرة دائمًا، حتى لا ينفصل يومه عن أمسه، ولا ينقطع يومه عن غده"[169] وبهذا يكون الشعر الجزائري الحديث "رسول ماض إلى حاضر"[170]؛ نتيجة حرصه على هذا التواصل بين الحاضر والماضي ولتفطّنه لسياسة الاستعمار الفرنسي التي استهدفت الهوية والكيان الجزائري وكل ما هو أصيل وعريق. ومن الدارسين من يرى أنّ الشاعر الجزائري قد عاد إلى الماضي والتراث؛ لأنّه وجد فيه الدين والبطولة ليدافع به عن المستضعفين وليُشبع به ظمأ الجمهور المتلقي الذي كان يتفاعل مع النصوص التي يرويها الشاعر الشعبي، لأنّها توضّح له أهداف الرسالة التي يرمي الشاعر الشعبي إلى تبليغها[171]، مع أنّ الشعب الجزائري "لا يعرف القراءة والكتابة"[172]، ويتلقى الشعر لأنّه يُحسن الاستماع، إذ يُعتبر "السمع وسيلة من أهم وسائل التثقيف الشعبي"[173] يعتمد عليها المتلقي الشعبي ويعي ويتذوق الشعر ويتجاوب مع القصيدة

---

[166] علي عشري زايد. استدعاء الشخصيات التراثية. ص: 16.

[167] صالح خرفي. شعر المقاومة الجزائرية. ص: 93.

[168] صالح خرفي. الشعر الجزائري الحديث. ص: 17.

[169] العربي دحو. العناصر والمجموعات الوطنية في النص الشعري الشعبي. ص: 378.

[170] صالح خرفي. الشعر الجزائري الحديث. ص: 26.

[171] انظر: التلي بن الشيخ. منطلقات التفكير في الأدب الشعبي الجزائري. ص: 43-44.

[172] انظر: عبد الله ركيبي. الشعر الديني الجزائري. ص: 420.

[173] إبراهيم أنيس. الأصوات اللغوية. ص: 15.

الشعبية إلى أبعد الحدود؛ إذ "لم يجد الشعب متنفسًا لمكنوناته إلاّ في القصيدة الشعبية"[174]؛ لاتساع متلقيها، حيث تصل إلى الفئات الشعبية المختلفة وتُؤدي رسالتها.

"القضايا الوطنية كانت أبرز اهتمامات الشعر الشعبي الجزائري"[175] فكان خطابًا إبداعيًّا معدًّا من أجل الشعب يستهدف إثارته وتثويره وتحريضه لإصلاح حاله وحال مجتمعه. ويرى ركيبي أنّ شاعر الملحون لما كان الرسول(صلى الله عليه وسلم) ورسالته محور شعره الديني، قد وُفّق في تجربته الشعرية وعلى مستويي الإبداع الشكل والمضمون؛ حيث قدّم نموذجًا جيّدًا للشعر الديني الوطني وللقصيدة الفنية، ونجح في الربط بين تجربته الخاصة والتجربة العامة للشعب من خلال مزجه للتجربتين في تيار واحد[176]، ونجح في تكييف شعره الديني مع القضايا الوطنية والمصيرية للشعب الجزائري و"تتبع الثورات الجزائرية، وكان مدفوعًا في هذا الحماس الفياض بروح دينية إسلامية"[177] اصطبغ بها الشعر الثوري الشعبي؛ لأنّ شاعره "معتز بإسلامه وعروبته وبحضارته الإسلامية، فالرباط تام ومتين بين هذه المقومات الثوابت والثورة التحريرية"[178].

تتفق الرؤية النقدية للناقد عبد الله الركيبي مع رؤى نقاد الشعر الشعبي في الجزائر الذين اعتبروا السمة الثابتة في هذا الشعر، التصاقه "بالروح الوطنية والدفاع عن الحرية والكرامة، فقد تابع الثورات الجزائرية المتعاقبة وسجّل انتصاراتها في حماس كبير، كما سجّل هزائمها في حسرة وحزن وحارب الظلم والطغيان في كل أشكاله وصوره"[179]. وقد شبّه خرفي النص الشعبي وهو يتلمس الجراح هنا وهناك ويتفقّد الصرعى في ميدان المعركة، بأم ثكلى تتوسم ملامح وحيدها في زحمة القتلى[180]؛ لشدة ارتباط الشعر الشعبي الجزائري بقضايا مجتمعه وحرصه الشديد على مسايرتها وإلحاحه في ذلك، حيث وجد ركيبي الشعر الديني الملحون يربط بين الدين والمجتمع وذات الشاعر[181]، إذ قصر الشاعر الشعبي اهتمامه بالقضايا "ذات الارتباط الوثيق بهموم المجتمع وآلامه وجراحه، كما تعبّر نصوص الشعر عن الحياة التي يريدها الشاعر"[182]، ووضّح الناقد كيف يتم الترابط؛ حيث يمزج شاعر الملحون الجزائري بين قضيته ووطنه محتلًا مستعمرًا بالأجنبي وبين الدين والوطنية

---

[174] صالح خرفي. شعر المقاومة الجزائرية. ص: 21.

[175] التلي بن الشيخ. منطلقات التفكير في الأدب الشعبي الجزائري. ص: 6.

[176] انظر: عبد الله ركيبي. الشعر الديني الجزائري. ص: 449.

[177] انظر: التلي بن الشيخ. منطلقات التفكير في الأدب الشعبي الجزائري. ص: 6.

[178] انظر: العربي دحو. العناصر والمجموعات الوطنية في النص الشعري الشعبي. ص: 378.

[179] التلي بن الشيخ. منطلقات التفكير في الأدب الشعبي الجزائري. ص: 6.

[180] صالح خرفي. شعر المقاومة الجزائرية. ص: 21.

[181] عبد الله ركيبي. الشعر الديني الجزائري. ص: 453.

[182] انظر: التلي بن الشيخ. منطلقات التفكير في الأدب الشعبي الجزائري. ص: 11.

والتوسل عن طريق الرسول(صلى الله عليه وسلم) وصحابته، وبذلك تبرز شخصية الشاعر بصورة لافتة للنظر ولا يصبح التوسل أو الدعاء ترديدًا لتعابير جاهزة أو مجرد تقرب لله، بل تعبيرًا عن قضية عامة وعن فكرة جماعية، وهو ما يحقّقه هذا الشعر في بعض صوره ومضمونه[183].

ارتباط ذات الشاعر بشعره له ما يبرره؛ فالشاعر الجزائري باعتباره إنسانًا "فقد نفسه في التيار العام الذي طغى على الحياة الجزائرية واستعاض ملامحه الخاصة بملامح القضية العامة، فأصبحنا نتعرف عليه من خلال هذه القضية أكثر من تعرفنا عليه من خلال ذاته، وهذا الموقف لا ينفي الذاتية في الشعر الجزائري نفيًا مطلقًا"[184]. والتعرف على ذات الشاعر معناه التعرف على الشعب الجزائري كله؛ ففي الشعر الشعبي ترتبط صفة الشعبية بالتعبير عن الوجدان الجماعي[185]، ونزوع معظم قصائد الشعر الديني الملحون نزعة وطنية واصطباغها بصبغة دينية يجعلها مزيجًا من الدين والسياسة والروح الوطنية[186] لا تنطمس معه شخصية الشاعر التي هي شخصية شعبه والجماعة التي ينتمي إليها، ومهما "طغت القضية الوطنية فإنّ للأحاسيس والمشاعر الفردية طغيانها"[187]، حتى في الشعر الشعبي الذي يدعو "إلى الوحدة الوطنية"[188] والتي تُمثلها في ذهن الشاعر العربية والإسلام والوطن.

4.1.2. قضية الالتزام في الشعر الشعبي الديني الجزائري:

عبد الله الركيبي على وعي بأنّ الشعر الشعبي يحوي "الشعر الوطني الذي ينشد الاستقلال، ويحرّض على مقاومة الاحتلال"[189]، ففي النص الشعبي "نلمس المضمون المقاوم من أوّل بيت في القصيدة، ولا يفارقنا حتى آخر بيت فيها مهما طال نفسها؛ إذ لا نجد لمقاومة الشعب الجزائري وكفاحه تسجيلًا أمينًا إلّا في هذا اللون من الأدب"[190]، ومع هذا حالت ثقافة الشاعر الجزائري الشعبي البسيطة دون استيعابه التام لإيديولوجية الثورة، لأنّ "رؤية الشاعر الشعبي للثورات الجزائرية المتتالية لم تأخذ بعدًا اجتماعيًّا موحدًا يعطي هذه الثورات أصالة ووحدة وطنية متكاملة"[191]، مما صعّب

---

[183] عبد الله ركيبي. الشعر الديني الجزائري. ص: 427.

[184] انظر: صالح خرفي. الشعر الجزائري الحديث. ص: 7.

[185] انظر: أحمد يوسف. يتم النص والجينيالوجية الضائعة– تأملات في الشعر الجزائري المختلف.ص: 27.

[186] انظر: عبد الله ركيبي. الشعر الديني الجزائري. ص: 373.

[187] انظر: صالح خرفي. الشعر الجزائري الحديث. ص: 7.

[188] التلي بن الشيخ. منطلقات التفكير في الأدب الشعبي الجزائري. ص: 45.

[189] أحمد يوسف. يتم النص والجينيالوجية الضائعة– تأملات في الشعر الجزائري المختلف. ص: 34.

[190] انظر: صالح خرفي. شعر المقاومة الجزائرية. صص: 21–22.

[191] التلي بن الشيخ. منطلقات التفكير في الأدب الشعبي الجزائري. ص: 6.

عليه بلورة رؤية متكاملة للقضية الجزائرية تُسهم في إيجاد الحلول، لكن قصر الرؤية عند الشاعر الشعبي الجزائري لم تكن حائلًا يمنعه من تأدية مهمته، واستطاع أن يساير الأوضاع ويُكيّفها مع الثورة و"يتخذ موقفًا صريحًا للتمرد على الواقع، ويدع إلى تحقيق وضع جديد يستهدف مصلحة المجتمع وسعادة الفئات الشعبية؛ فقد التزم حسب ركيبي بمُثل الشعب وتطلّعاته وملأ الفراغ الأدبي والروحي الذي أحس به"[192]، وعبّر عن مشكلاته "في حدود تصوّره وإدراكه لأسباب القضايا التي يطرحها"[193]، إذ استطاعت القصيدة الشعبية "إزاحة الستار عن الجانب القاتم للمأساة الجزائرية وعرضته في إحساس مرهف، وتعبير صادق"[194]، اعتمد فيه الشاعر الشعبي على ما زودته به ثقافته وما أمده به واقع المجتمع وما يعانيه من ظلم وإرهاق، وما يكابده من فقر وجهل وحرمان؛ ولهذا يعتبره كثير من الباحثين خطابًا إبداعيًّا مكمّلًا للتراث الوطني والقومي، وله فنياته وشعريته الخاصة، والتي تأتي من التحام الشكل بالمضمون المقاوم للاستعمار، فقد أقرّ ركيبي بوجود أرضية يلتقي فيها الشاعران الرسمي والشعبي والمتلقي[195] أطلق عليها الإطار الحضاري الواحد الذي يضم هؤلاء جميعًا بحيث يتقاربون في النظرة وفي الإحساس والتفكير وفي التذوق معًا، إذ يعي ناقدنا أنّ استراتيجية قراءة النص الشعري تخضع لزمن الكتابة والتلقي وتستوجب مراعاة الشروط التاريخية.

3.خاتمة:

ما يمكن الخلوص إليه من خلال مقاربة الرؤية النقدية للناقد الجزائري عبد الله الركيبي، خاصة ما يتعلق برؤيته للشعر الشعبي الديني أنّه شعر:

– التزم بقضايا الثورة والدين، واستدعى التراث الوطني والقومي والإسلامي للنهوض بالشعب الجزائري.

– تنوعت أساليب التعبير فيه من قصيدة أو قصة بطولية أو حكاية خرافية أو سيرة شعبية، ينشدها الشاعر أو يغنيها في الأسواق والمحافل، يستثير بها همم الناس، يذكرهم بأسلافهم وماضيهم المجيد، أو يعظ بالدين والأخلاق.

---

[192] انظر: عبد الله ركيبي. الشعر الديني الجزائري. ص: 7.

[193] التلي بن الشيخ. منطلقات التفكير في الأدب الشعبي الجزائري. ص: 11.

[194] انظر: صالح خرفي. شعر المقاومة الجزائرية. ص: 79.

[195] انظر: عبد الله ركيبي. الشعر الديني الجزائري. ص: 493.

– عبّر من خلاله الشاعر عن مثل الشعب وتطلعاته، وملأ الفراغ الأدبي والروحي الذي أحس به الشعب، وأبقى على الإشعاع الأدبي في الجزائر، وحافظ على اللغة العربية رغم الظروف الصعبة التي تعرضت لها هذه اللغة والثقافة القومية بوجه عام.

بالإضافة إلى ذلك فإن:

– الناقد الجزائري عبد الله الركيبي من النقاد الأوائل الذين خاضوا غمار الممارسة النقدية، وما أنجزه يستحق التقييم والتقديم والتعريف به؛ وبإمكان الاهتمام بمنجزه النقدي الذي اهتم فيه بقراءة الشعر الشعبي الديني المساهمة في الوقوف على جملة القواعد والشروط التي تضبطه بوصفه خطابًا، وموقعته في مسار الحركة النقدية للأدب الشعبي ككل؛ مما يساهم في بلورة نظرية نقدية خاصة بالشعر الشعبي الجزائري.

– من الضروري الاهتمام بالمنجز النقدي الشعبي الجزائري، وإعادة قراءته في ضوء النظريات والمقاربات النقدية الحديثة، التي تمكّن من إعادة إنتاج المنجزات والتعرّف على مختلف القضايا النقدية والإيديولوجيات الفكرية التي التزم بها الشعر الشعبي الذي يصنف مع أدب الهامش.

4. المراجع المعتمدة:

1. أحمد يوسف. يتم النص والجينيالوجية الضائعة– تأملات في الشعر الجزائري المختلف. ط1. منشورات الاختلاف. 2002.
2. التلي بن الشيخ. دور الشعر الشعبي الجزائري في الثورة. باقي بيانات المرجع
3. التلي بن الشيخ. منطلقات التفكير في الأدب الشعبي الجزائري.باقي بيانات المرجع
4. سيف الدين القنطار. الأدب العربي السوري بعد الاستقلال–دراسات نقدية عربية– منشورات وزارة الثقافة السورية، دمشق. 1997.
5. صالح خرفي. الشعر الجزائري الحديث. المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر. 1984.
6. صالح خرفي. المدخل إلى الأدب الجزائري الحديث. الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر. 1983.
7. صالح خرفي. شعر المقاومة الجزائرية. الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر. دت.
8. عبد الله الركيبي. الشعر الديني الجزائري الحديث. ط1. الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1981.

9. العربي دحو. العناصر والمجموعات الوطنية في النص الشعري الشعبي بمنطقة الأوراس أيام الثورة التحريرية. مجلة الثقافة. السنة الرابعة عشرة، العدد 83. تصدرها وزارة الثقافة، الجزائر. 1984.
10. عز الدين معتصم. موضوعات التصوف في الشعر الملحون. باقي بيانات المرجع
11. علي عشري زايد. استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر. دار الفكر العربي، القاهرة. 1997.
12. محمد بنيس. حداثة السؤال: بخصوص الحداثة العربية في الشعر والثقافة. ط2. المركز الثقافي العربي، بيروت–لبنان، الدار البيضاء–المغرب. 1988.
13. محمد مندور. في الميزان الجديد. ط1. نشر وتوزيع مؤسسات ع بن عبد الله، تونس. 1988.